

## الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

### الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٣)</sup> وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل أفئدة الطير»، رواه مسلم. قيل: معناه يتوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يزرق الطير، تغدو خماصاً<sup>(٤)</sup>، وتعود بطاناً». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود مَنْ دَعَانِي أُجِبْتُهُ، وَمَنْ اسْتَعَاثَنِي أُعِثُّهُ، وَمَنْ اسْتَنْصَرَنِي نَصَرْتُهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيَّ كَفَيْتُهُ، فَأَنَا كَافِي الْمُتَوَكِّلِينَ، وَنَاصِرُ الْمُسْتَنْصِرِينَ، وَغِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِينَ وَمَجِيبُ الدَّاعِينَ».

حكى أنه كان في زمن هارون الرشيد، قد حصل غلاء سعر وضيق حال، حتى اشتد الكرب<sup>(٥)</sup> على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد بكثرة الدعاء، والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب. ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال: إن سيدي عنده خزائن بَرَّ<sup>(٦)</sup> وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذاً لا أبالي، فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى، فسلم الناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل. فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أدنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم، ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً، ونحن على ما ترى من

(١) سورة: الفرقان، الآية: ٥٨.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢.

(٣) سورة: الطلاق، الآية: ٣.

(٤) الخمص: ضمور البطن.

(٥) الكرب: الغم.

(٦) بَرَّ: قمح.

الفاقة<sup>(١)</sup> فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول الرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك. فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا، انطلق حيث أحببت. فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم، كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة، ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك، وأنت لا تضيعهم، فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم.

فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: الأمير بياكم يستسقيكم. فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك، البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقيننا، ثم إنها أخذت كوزاً<sup>(٢)</sup> جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمر، فقال: لا والله، بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً. فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم. ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبني فَلْيَلِمْ منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا. فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمان هذه المناطق، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزياً، واستردّها منهم. فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً فقالوا لها: ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي، فإن الله وسع علينا. فقال: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفه عين، اللهم انظر إلى أينا وديره بأحسن التدبير.

هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً، ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طيباً فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح؟ فدلّ على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب. فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين وإن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه، فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء: مَنْ أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع<sup>(٣)</sup>، ومن علم أن مولاة خير له من العباد فقصدته كفاه همه، وجمع شمله. وفي

(١) الفاقة: شدة الفقر والحاجة.

(٢) كوزاً: وعاء صغير للشرب.

(٣) الجزع: الخوف والفرع.

الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تفعلك بشيء لم يفعلوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بني أمية، عظيم المال والجاه، كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام، واتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه، وما يتكلم به، واذكر لي حاله وماله، وقد أجتلك لذهابك ستاً، ولمجيتك ستاً، ولإقامتك يوماً. أفهمت؟ قلت: نعم، قال: فسر على بركة الله. فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة وغللمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم إن هذا رسول أمير المؤمنين. فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم. فسألت عنه، فقيل لي هو في الحمام، فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أنتقد<sup>(١)</sup> الدار، وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان، وحفدة وغللمان، فسلم عليّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كلُّ معنا. فتأملت تأملاً كثيراً، إذ لم يُكنِّي فقلت: ما أكل، فلم يعاودني ورأيت ما لم أراه إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة فكلُّ قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني، ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر، فآتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة، فناولته كتاب أمير المؤمنين قبله ووضع على رأسه ثم فضه وقرأه. فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض عليّ. فقال: الطلاق يلزمه، والحج، والعق، والصدقة، وسائر أيمان البيعة، لا يجتمع اثنان منكم في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم، ثم استقبلني وقدم رجله، وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده، وحمل حتى وضع في المحمل، وركبت معه في المحمل وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتداء يحدثني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه غرائب الأشجار، وطيب أثمار كذا وكذا، وهذا المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك، ومن بين أهلك، ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك،

(١) أنتقد: أنفقد وأنفحص.

ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك. فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾<sup>(١)</sup>، لقد أخطأت فراستي فيك، يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة، إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي، الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى عليّ بأمر فلا حيلة لي بدفعه، ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر عليّ بشيء، فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشٍ وشي عند أمير المؤمنين بيهتان<sup>(٢)</sup>، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض. فقال: هات يا منارة، أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة، والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلماؤه وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدي لأصحابي، فلم أجد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجليه، اسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وسأتيه وما قلت له وما قال لي قال: هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه. وقد أزعجناه وأرعبناه، وشوشتنا عليه، وعلى أولاده وأهله، أخرج إليه وانزع قيوده، وفكه وادخله عليّ مكرماً. ففعلت:

فلما دخل قتل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي، قال: فصل غيره. قال: عدل أمير المؤمنين في عماله، ما أحوجني إلى سؤال، قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه. قم في حفظ الله ووداعه ورعايته، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك. فانظر إلى حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه، ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً. يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائني مملّنة وخزائني لا تنفذ أبداً. يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك، فإن طلبتني وجدتني، وإن أنست بغيري فُتكت، وفانك الخير كله. يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وقسمتُ رزقك فلا تتعب، وفي أثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذموماً. يا ابن آدم خلقتُ السموات السبع والأرضين السبع، ولم أع بخلقهن، أيعيني<sup>(٣)</sup> رغيف أسوقه من غير تعب. يا ابن آدم آنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبن برزق غد، كما لا أطلبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) بيهتان: زور وكذب.

(٣) أيعيني: من الإعياء وهو التعب الشديد.

وما نَمَّ إلا الله في كل حالةٍ  
فكم حالةٌ تأتي ويكرهها الفتى  
ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توَكَّلْ على الرحمن في الأمر كُلِّهِ  
وَكُنْ واثقاً بالله واصبِرْ لحكمه  
فما خاب حقاً مَنْ عليه توكلأ  
تَقَرَّ بالذي ترجوه منه تفضلاً

## الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى: «مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً»<sup>(١)</sup> أن المراد بها القناعة. وقال عليه السلام: «القناعة مال لا ينفد». وقيل: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما القناعة؟ قال: «الإيأس مما في أيدي الناس». «وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة. قال الكندي:

العبد حرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق بينما هو يمشي فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي:

إنني رأيتك قاعداً مستقبلي  
هوِّنْ عليك وكنْ برئِكْ واثقاً  
فعلمتُ أنَّكَ للهموم قرينٌ<sup>(٢)</sup>  
فأخُو التوَكُّلِ شأنُه التهوينُ  
طَرَحَ الأذى عن نفسه في رزقه  
لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مضمونٌ

قال: فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل. وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك، والسياسة، والتجارة، والفلاحة، وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعاش. فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً، قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبيلاً للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعه خيش معمد بعظام الجيف، كلبه معه في بيته، لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعير الإبل، وطيبه القطران وبعير الأطباء، وحلي زوجته الودع، وثماره المقل<sup>(٣)</sup>، وصيد اليربوع<sup>(٤)</sup> وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به؟

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٧.

(٢) قرين: خليط وصاحب.

(٣) المقل: ثمر شجرة الدوم.

(٤) اليربوع: من أنواع الزواحف.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالياس، فإنك لم تياس من شيء إلا أغناك الله عنه. وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه، وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه. فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبقتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحَي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح<sup>(١)</sup>، واخرجوا من الدنيا بسلام. وأنشد المبرد:

إِنْ ضَرَّ زَيْدٌ بِمَا فِي بَطْنِ رَاحَتِهِ      فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَالرِّزْقُ مَبْسُوطٌ  
إِنَّ الَّذِي قَدَّرَ الْأَشْيَا بِحُكْمَتِهِ      لَمْ يَنْسِنِي قَاعِدًا وَالرَّحْلُ مَحْطُوطٌ

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة. قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه. قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً ففاته الصلاة، فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعوراً. فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة، فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه. وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً فما عوضك عما تركت له، قال: الرضا بما أنا فيه. وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذلَّ له. وقال الفضيل: مَنْ رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالتي، ونور القمر سراجي، وبقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها:

إِن الْقِنَاعَةَ مَنْ يَحْلُلُ بِسَاحَتِهَا      لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يَؤُورِقُهُ<sup>(٢)</sup>

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته<sup>(٣)</sup> فقال له: أأنت القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي      أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي  
أَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعِينَنِي تَطَلُّبُهُ      وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَيْسَ يُعِينَنِي

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فابلغت. وخرج فركب ناقته وكرّ إلى الحجاز راجعاً. فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد عليّ ورددته خائباً، فلما أصبح وجّه إليه بألفي دينار، ففرغ عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام، وقل له كيف رأيت قولي: سعت فأكديت فرجعت. فأتاني رزقي في منزلي.

(١) القراح: البارد الصافي.

(٢) يؤرقه: يحرمه النوم.

(٣) الخلّة: الخلق والصفة في الإنسان.

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له: أنصاري، وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين. فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري قال: رجع إلى أهله فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري، بثمانية آلاف فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرص الحريص بنافع	فيغني ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعاً من مساقطِ روسناً	على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أتخنا الناجعات بيابه	تخلف عني الشربي ابن جابر
وقال ستكفيني عطية قادر	على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر	لربي الذي أرجو لسد مفاري <sup>(١)</sup>
فقلت خلا لي وجهه ولعله	سيجعل لي حظ الفتى المتزاور
فلما رأني سأل عنه صبابة	إليه كما حنت ظوار الأباغر <sup>(٢)</sup>
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعا	ولا ضائراً شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه. أتدري لِمَ رزقتُ الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال. ولبعض العرب:

ولا تجزغ إذا أعسرت يوماً	فقد أسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء	فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار	وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقاً	لكان المال عند ذوي العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض. فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها طعام. فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك وأنت نبي، وابن نبي. ودخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: أمسك عليّ بغلتي. فأخذ الرجل لجامها ومضى، وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال علي رضي الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدر له. وقيل الراهب. من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه، وقال: الذي خلق هذه الرحي يأتيها بالطحين. وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه	به والله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم أت البخيل ولم أقم	على بابيه يوماً مقام ذليل
وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى	إلى الناس مبذولاً لغير قليل

(١) مفاري: حاجاتي.

(٢) الأباغر: أي كما عطف على أولاد غيرها.

وصلّى معروف الكرخي خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك. قال: ولم؟ قال: لأن من شك في رزقه، شك في خالقه. وقال أبو حازم: ما لم يكتب لي، لو ركبت الريح ما أدركته. وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السعْرُ في بغدادَ من بعد رخصِهِ      وإنسي في الحالَيْنِ باللهِ واثقُ  
فلستُ أخافُ الضيقَ واللهِ واسعُ      غناه، ولا الحرمانَ واللهِ رازقُ

وقال القهستاني:

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم      وإن الغنى الأعلى عن الشيء لا به  
وقال منصور الفقيه:

الموتُ أسهلُّ عندي      بين القنا والأسننة  
والخيال تنجري سراعاً      مقطعات الأعنة  
من أن يكون لنذل      علي فضلٍ ومننة<sup>(١)</sup>

وأشده أعرابي:

أيما ملك لا تسأل الناس والتمس      بكفئك فضلَ الله، فالله أوسعُ  
ولو تسأل الناسَ الترابَ لأشكوا      إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر». وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك. وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم، لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغطك بها من دونك، ولا يحقرك معها من فوقك. وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيشَ فابغِ توشطاً      فعند التناهي يقصر المتطاوُلُ  
توفى البدرُ النقص وهي أهلة      ويدركها النقصانُ وهي كواملُ

وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله      واحذَر ولا تعرّض للإراداتِ  
فما صفا البحرُ إلا وهو متقصُّ      ولا تعكّر إلا في الزياراتِ

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهة      لإغلاق بابٍ أو لتجديد حاجبٍ  
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب      إذا انصرفت عني وجوه المذاهبِ

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن آتته صحيفة تناولها، وإن لم تأت له لم يرصدها، ولم يطلبها. وقال شقيق بن إبراهيم البلخي. قال لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه. قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت، قال. هكذا تعمل كلاب بلخ. فقلت: كيف تعمل أنت. قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت. وقال بعضهم:

هي القناعة فالزَمَها تَعِشْ ملكاً  
وانظرْ لَمَن مَلَكَ الدنيا بأجمعها  
ولو لم يكن منها إلا راحةً البدنِ  
هل راحَ منها بغير القطنِ والكفنِ

وقال آخر:

وإن القناعة كنزُ الغنى  
فلا ذا يراني على بايه  
فصرتُ غتياً بلا درهم  
فصرتُ بأذيلها ممتسكاً  
ولا ذا يراني له منهمك  
أمرُّ على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء، ووجدهم بغير سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني، تركت مثلي على هذه الحالة. والله تعالى أعلم.

### الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿الْهَاطُكُمُ التَّكَاثُرُ \* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾<sup>(١)</sup> وروي أن النبي ﷺ قرأ ﴿الْهَاطُكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت؟ وروي عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت للذوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفي ثوباً حتى ترقعيه». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل، والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه. وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب. وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طأوعتَ حرصك كنت عبداً  
لكل دنية تُدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يثب  
إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرّ الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها. وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) سورة: التكاثر، الآيتان: ١-٢.

«ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر، أن أسامة لطويل الأمل». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول، ثم يمسح بالتراب. فأقول إن الماء منك قريب. فيقول: ما يدريني لعلي ما أبلغه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه «لا يزال الكبير شاباً في اثنين حب المال وطول الأمل» وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل. وقيل: مَنْ جرى في عنان أمله كان عاثراً<sup>(١)</sup> بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرصٍ تراه يلسم وفرأ  
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ  
ولقد أحسن مَنْ قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً  
ولا تحرص ليومٍ أنت فيه

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَنْ ألهاه أمله أخزاه عمله. قال عبد الصمد بن المعذل:

ولي أمل قطعته به الليالي  
أراني قد فنيته به وداما

وقال الحسن: إياكم وهذه الأمانى فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا، ولا في الآخرة. قال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شك فائت  
وقال آخر:

ولا تتعلل<sup>(٣)</sup> بالأمانى فإنها  
وقال آخر وأجاد:

الله أصدق، والآمال كاذبة  
وقال آخر:

شط المزار بسعدي وانتهى الأمل  
إلا رجاء فما ندري أندركه

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجدد الموت في طلبي  
لو شمرت فكرتي فيما خلقت له

(١) عاثراً: زالماً.

(٢) أمسك الثانية: نقيض غدك.

(٣) التعلل: التسلي والتلهي.

وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمرو  
هَبِ الدنِيا تُقَادُ إليك عفواً  
أذلّ الحرصُ أغساقَ الرجالِ  
أليسَ مصيرُ ذلكَ للزوالِ  
وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:  
أيا مَنْ عاش في الدنيا طويلاً  
وأتعَبَ نفسَهُ فيما سيفنسى  
هَبِ الدنِيا تُقَادُ إليك عفواً  
وأفنى العمرَ في قيلٍ وقيلٍ  
وجَمَعَ من حرامٍ أو حلالٍ  
أليسَ مصيرَ ذلكَ للزوالِ

ومما جاء في الطمع وذمه: قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطاعم. وقال رضي الله عنه: ما الخمر صرفاً<sup>(١)</sup> بأذهب لعقول الرجال من الطمع. وفي الحديث: «إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق وعبد شهوة. وعبد طمع. وقال بعضهم: مَنْ أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع. وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه وقال: الطمع، وشبهه النفس، وطلب الحوايج إلى الناس. واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع. وقيل، لَمَّا خلق الله آدم عليه السلام، عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد. فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها، والجاهل يبيديها. ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه. قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن نَقَعُ  
مَنْ راقبَ الله نَزَعُ  
ما طارَ طيرَ وارْتَفَعُ  
ما الذلُّ إلا في الطَمَعِ  
عن سوء ما كان صَنَعُ  
إلا كما طارَ وَقَعُ

وقال سابق البربري:

يخادع ريبَ الدهر عن نفسه الفتى  
ويطمعُ في سوف ويهلك دونها  
سفاهاً وريبُ الدهر عنها يخادعُ  
وكم من حريصٍ أهلكته مطامعُ

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري، فأفثُ خبزي. وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتسازان في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله. وما زفت عروس إلا كنت بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلي. قال بعضهم:

لا تغضبِ من على امرئ  
واغضبِ على الطمعِ استد  
لك مانعٌ ما في يديه  
عَاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

(١) صِرْف: دون مزج، صافية.